رومان رولان

قبل اشتعال الحرب العالمية الثانية كان رومان رولان يطلع علينا بين وقت وآخر من أعماق عزلته فى سويسرا بعيداً عن وطنه فرنسا بكتاب أو مقال جديد فيشعر من قرأ هذا الأديب العظيم بحنين زائد إلى قراءة هذا الكتاب أو هذا المقال . ذلك أن رومان رولان كاتب عالمى الفكر والعاطفة لا يكتب لأمة معينة ولا لشعب خاص بل يكتب للعالم أجمع ناظراً إليه كأسرة إنسانية واحدة لا تمزقها حدود ، ولا تفرقها لهجات ، ولا تبذر بذور الحقد والضغينة فى قلوب أعضائها فكرة الأجناس . لذا كان رومان رولان من أحب الكتاب المعاصرين إلى كل قلب رحيم ونفس واسعة الآفاق . وكتابه الشهير عن (المهاتما غاندى) يقربه إلى قلوبنا نحن الشرقيين لأنه وقف فيه موقف المدافع القوى عن الحركة الهندية وشعبها المجيد المهضوم ، كاشفاً القناع عن فضائح الغرب وآثامه فى قتل أمة عظيمة بلغت مئات الملايين والوقوف فى وجهها بالالتجاء إلى البطش الخسيس حين تنهض مطالبة بحقها فى الحياة .

ولا عجب أن يبدو ذلك من رجل مثل رومان رولان لم تكد

تعلن الحرب العالمية الأولى — وكان وقتذاك فى جنيف بسويسرا — حتى أخذ يكتب سلسلة مقالات ملتهبة بالعاطفة الإنسانية ، مطالباً فيها بالمبادرة بحقن الدماء وعودة السلام وإنقاذ أرواح الشباب البرىء الذى يلعب بعقله محترفو السياسة مستغلين حرارة قلبه وسمو نفسه فى سبيل جشع أصحاب مصانع السلاح ودجل رجال الحكومات من صنائع التوسع الاستعمارى . ولقد آثر رومان رولان عداء الرجعيين من أبناء وطنه والصحافة المادية المغرضة التى أثارت عليه الرأى العام على أن يتنازل عن حريته فى الفكر والقول ، عن إنسانيته التى هى ثروته الكبرى .

* * *

ولد رومان رولان فى بلدة كلاميسى Clamecy فى اليوم التاسع والعشرين من شهر يناير سنة ١٨٦٦ من أسرة ريفية بورجوازية عريقة القدم . وتعلم أولا فى البلدة التى ولد بها . ثم انتقل إلى باريس عام ١٨٨٦ حيث التحق بمدرسة النورمال العليا ، وفى عام ١٨٨٩ نجح فى امتحان الأجريجاسيون فى التاريخ والفلسفة ، وفى عام ١٨٩٥ حصل على شهادة الدكتوراه فى الآداب برسالة قدمها عن (أصول المسرح الغنائى الحديث) Les origines du théâtre lyrique moderne وعين بعد ذلك أستاذاً لتاريخ الفن فى مدرسة النورمال العليا ، ثم عين أستاذاً فى السوربون حيث أدخل مادة (تاريخ الموسيقى) وبقى فيها حتى عام ١٩١١ .

ابتدأ رومان رولان حياته الأدبية بكتابة عدد كبير من القصص المسرحية ، ولم يكن ذلك منه عفواً بل كان تنفيذاً لفكرة مختمرة فى نفسه عن وجوب تجديد الفن المسرحى بالطريقة التى شرحها فى سلسلة مقالاته التى كتبها بعنوان (مسرح الشعب) Théâtre du peuple (١٩٠٠) .

كتب رومان رولان من هذه القصص المسرحية Saint Louis (١٨٩٧) — Aërt (١٨٩٨) — Les loups (١٨٩٨) — Le triomphe de la raison (١٨٩٩) — Danton (١٩٠٠) — Le 14 juillet (١٩٠٢) — Le tenps viendra [1] (١٩٠٢) Le Montespan (١٩٠٤) Les trois amourouses (١٩٠٥) Le triomphe de la libérté (١٩١٧) Liluli (١٩١٩) . . . الخ .

وفى مقالاته عن (مسرح الشعب) نادى رومان رولان بأن يكون المسرح متحرراً من بورچوازيته أى من اقتصاره على رسم ألوان الحياة الدائرة بين الطبقة الوسطى والغنية ومن وجهة نظرها الخاصة . ذلك أن هذه الطبقات لا تكوّن إلا جزءا من الأمة ، فاقتصار الكتاب المسرحيين عليها فى موضوعاتهم يحرم المسرح من أن يكون معبراً عن روح الشعب الحقيقية وآماله التى لا نلمسها

(١) القصة الأولى والثانية والرابعة تدخل تحت عنوان رئيسى واحد هو (مآسى الإيمان) Tragédie de la foi والقصة الثالثة والخامسة والسادسة تدخل تحت عنوان (مسرح الثورة) Théâtre de la révolution

إلا فى الطبقات الفقيرة وهى الكثرة فى كل شعب . كذلك هاجر رومان رولان المسرح الكلاسيكى والمسرح الروماتيكى داعيا إلى أن يكون الفن المسرحى صدى لتفكير العصر الذى نعيش فيه ، وأن يكون ممهدا الطريق لمجتمع جديد . وبرغم أن رومان رولان بقى حتى الحرب العالمية الأولى لا يعلن فكرته السياسية المحددة فإن كل كتبه كانت تفيض بتمجيد الحرية والأحرار وبنزعة إنسانية عظمى . ولقد كان هذا المجتمع الجديد الذى يرمى إلى التمهيد له هو ذلك الذى تحيا فيه الطبقات الفقيرة المهضومة حياة حرة كريمة وتجد بين أحضانه أكبر قدر من الحنان والتقدير .

على أننا ونحن فى انتظار ذلك اليوم المطوى فى ثنايا الغيب يرى رومان رولان وجوب أن نعد الشعب لتقبل ذلك المجتمع الجديد ، وما ذلك إلا بأن نهيىء الفرد لبلوغ أعظم درجة مستطاعة من الكمال الإنسانى حتى يقابل كل تطور جديد بقلب مفتوح وصبر جميل . ولذا نرى رومان رولان (أخلاقياً) يطالب الفرد بأن يكون قوى الخلق ، عظيم النفس ، حنون القلب ، محباً لكل الناس ، راغبا فى معرفة كل شىء ، مستعذبا التضحية فى سبيل الفكرة السامية . فبهذا وحده نستطيع أن نقبل راضين مجتمعاً جديداً مترفعاً عن الدنايا ، كارها لضروب الرياء الذليل ، بعيداً كل البعد عن الأنانية الحيوانية . ولهذا أيضا كان رومان رولان يهيم بحياة الأبطال الذين يرى فيهم مثلا أعلى لما يجب أن يكون عليه الفرد

من الفضائل . فنراه يكتب — كما ذكرنا — قصتيه المسرحيتين (سان لويس) و (دانتون) ، ثم نراه يكتب بعد ذلك ثلاث تراجم بعنوان (حياة الرجال المشهورين) Vies des hommes illustres ، أولاهما عن (حياة بيتهوفن) Vie de Beethoven (١٩٠٣) والثانية عن (حياة ميشيل آنج) Vie de Michel Ange (١٩٠٦) والثالثة عن (حياة تولستوى) Vie de Tolstoi (١٩١٣) ، ثم أخيراً كتابه الذائع الصيت عن (مهاتما غاندى) Mahatma Ghandi (١٩٢٦) .

ويرى رومان رولان أننا فى عصرنا الحاضر أحوج ما نكون إلى دراسة أولئك الأبطال (لأن أوروبا الآن يغشاها جو خانق مفعم بالرذيلة ، إذ طغت المادية الوضيعة على الفكر ... إن العالم يختنق ، فلنفتح النوافذ حتى يدخل الهواء الطلق الجليل . فلنستنشق نفثات الأبطال)[1] . وما هؤلاء الأبطال إلا أولئك الذين نرى فيهم — كما يقول رومان رولان — (روح البطولة ، ورجاحة العقل ، والابتسامة الدائمة ، وشهوة النور والمعرفة . تلك الصفات التى نراها فى فرنسا فى رابليه وموليير وديدرو ، وبين الموسيقيين نستطيع أن نقول بيرليوز وبيزيه لأنه لا يوجد خير منهما)

على أن رولان يرى فى بيتهوفن وميشيل آنج وتولستوى

---

(١) راجع مقدمة كتاب (حياة بيتهوفن)

عبقرية لم يجدها فى أبناء وطنه . فيرى فى بيتهوفن الشخص (الذى منه تنتقل عدوى الشجاعة الخارقة ، والإحساس بالسعادة فى الكفاح ، وتغلب الضمير الذى يشعر فى نفسه بأنه إلـه) ، ويرى فى تولستوى (ذلك النور الذى انطفأ والذى كان لأبناء جيلين أطهر نور أضاء شبابهم) وهو يجد فيه أيضا (ذلك الصديق الحقيقى الوحيد بين كل رجال الفن المعاصر) . ولسنا فى حاجة إلى تأكيد الصلة الوثيقة بين تولستوى ورومان رولان ، إذ أن تولستوى هو من أوائل الكتاب المحدثين الذين طالبوا بأن تكون رسالة الفنان مثالية ، وهذا هو أظهر ما يميز من رومان رولان ودعوته.

ونحن إذا نظرنا الآن إلى هؤلاء الثلاثة الذين يمجدهم رومان رولان رأينا أن أولهم ألمانى ، والثانى إيطالى ، والثالث روسى . فكأنه لم يجد بين أبناء وطنه مثله الإنسانى الأعلى . لذا كان ذلك داعياً إلى أن يجد رومان رولان عدداً ليس بالقليل من النقاد الفرنسيين يتهمونه بانتقاص العبقرية الفرنسية والطعن فيها . والواقع أن رومان رولان كان دائم اللوم لأبناء وطنه على (شدة تأثرهم بالأوهام الخداعة التى تصوغها الخطب الرنانة) ، وكان يصرح دائماً (بكرهه لذلك النوع الجبان من المثل الأعلى الذى يدير العيون عن بؤس الحياة وضعف النفس . إن البطولة الكاذبة جبن ونذالة . فليس هناك إلا نوع واحد من البطولة ، تلك هى التى ترى الحياة كما هى وتحبها) .

ولقد أراد رومان رولان أن يرسم صورة خيالية تتجمع فيها فضائل أبطاله السابقين فكتب قصة (چان كريستوف) Jean Christophe (١٩٠٤ - ١٩١٢)، وبطلها، وهو چان كريستوف موسيقى ألماني (تغلغلت فيه نفس بيتهوفن العظيمة فصلبت أعضاءه ونفسه وبدت كأنما جعلت حجمها ضخماً هائلا . لقد كان يتجه نحو العالم . كان كجبل شامخ تدوى بين أرجائه العواصف ، عواصف الحرارة والحماسة ، عواصف الهمّ الدفين ، آه ! ياله من همّ ! على أن ذلك لم يؤثر بشيء ! كان يحس بنفسه وافر القوة ! . . والعذاب ! العذاب أيضاً ! . . آه ! ما أجمل أن يكون المرء قوياً . ما أجمل أن يتعذب المرء عندما يكون قوياً . .) .

وقصة (چان كريستوف) تقع فى عشرة أجزاء ، وهى أقرب إلى أن تكون ترجمة لشخصية خيالية من أن تكون قصة ، وهى — كسائر أعمال رولان — تفيض بالضمير الحى والحب النبيل والموسيقى الرائعة .

وليس إعجاب رومان رولان ببيتهوفن قاصراً على كونه نموذجاً للبطل الذى ينشده بما دفعه لأن يرسم شخصية چان كريستوف مماثلة له ، بل أيضاً لأنه (أمام الموسيقيين) و (الموسيقى الآلهية) عند رولان كأبطاله بمثابة (الضوء الذى ينير حياته) . ولقد رأينا كيف كان له الفضل فى إدخال مادة (تاريخ الموسيقى) فى السوربون

حين عين أستاذاً فيها ، كما أنه كتب فضلا عن دراسته الخالدة عن بيتهوفن عدة دراسات أخرى فى الموسيقى منها (الموسيقيون القدماء) Musiciens d'autrefois (١٩٠٨) و (الموسيقيون المعاصرون) Musiciens d'aujourd'hui (١٩٠٨) و (هيندل) Haendel (١٩١٥) . ذلك أن رومان رولان يرى ككاتب أخلاقى أن الموسيقى خير مهذب للنفوس المريضة وأعظم حافز للعواطف الخامدة ، كما أن الموسيقى العبقرى يستطيع أن يجعل موسيقاه خير تعبير عن روح العصر وآماله وظروفه الملموسة .

وفى (النهار الجديد) La nouvelle journée (١٩١٢)، وهو آخر جزء من قصة (جان كريستوف) ، كتب رومان رولان يقول (إن أوروبا الآن توحى للناظر كأنها فى ليلة حرب) ، كتب ذلك قبل أن تعلن الحرب العالمية الأولى بعامين . وعندما اندلعت الشرارة الأولى كان رومان رولان فى سويسرا ، فكان بعده عن وطنه مساعداً له على أن يكون حر الرأى بعيداً عن التأثر بضروب الدعاية المختلفة التى كان يصيح بها ساسة الدول المتحاربة ، ومنها فرنسا ، تبريراً للحرب وحثاً للناس على خوض غمار القتال (كإنقاذ المدنية) أو (الحرب من أجل السلام الخالد) ، إلى غير ذلك من الأقوال التى لم تثبت الحوادث غير بطلانها .

ومنذ التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٩١٤ شرع رومان رولان يكتب سلسلة مقالات في (جريدة جنيف) ، بدأها بخطاب مفتوح إلى الكاتب الألماني هوپتمان ، مستنكراً الوحشية الألمانية التي أحرقت بلدة لوڤان البلجيكية وقال (كثير منكم أن يبدو ذلك العنف الذي تعاملون به هذه الأمة الكبيرة النفس — يقصد بلجيكا — التي لا ذنب لها إلا الاستماتة في الدفاع عن استقلالها وعن الحق كما فعلتم أنتم الألمان عام ١٨١٣ . . . احتفظوا بهذه القسوة لنا نحن الفرنسيين أعداءكم الحقيقيين . أما أن تتحمسوا ضد ضحاياكم ، ضد ذلك الشعب البلجيكي الصغير السيء الحظ ، فيا له من عار !) ثم يقول (ولم تكتفوا بأن تأخذوا البلجيك الحية بل أعلنتم الحرب على الأموات ، على مجد القرون ، فأمطرتم مالين بالقنابل ، وأحرقتم روبان ، وأصبحت لوڤان تلا من الرماد ، لوڤان بكنوزها الفنية وعلمها ، لوڤان المدينة المقدسة . . . هل تحاربون الجيوش أم الفكر الإنساني ؟ أقتلوا الرجال لكن احترموا الأعمال الفنية ، أنها تركة الجنس البشري الذي أنتم منه والذي نحن جميعاً الأمناء عليه . إنكم حين تحطمونه كما تفعلون الآن تثبتون أنكم غير جديرين بذلك التراث العظيم)[1] .

وفي مقالته الثالثة (فوق المعركة) ، التي أطلق عنوانها على مجموعة

---

(١) Au-dessus de la mêlée P. 6—7

المقالات حين جمعها فيما بعد فى كتاب ، نسمع رومان رولان يوجه اللوم الشديد إلى قادة الرأى العام والرؤساء الدينيين والمفكرين وخطباء المنابر قائلا (بين أيديكم ثروات حية ، كنوز من البطولة ، فماذا فعلتم بها ؟ لقد وجهتموها إلى الصراع والموت !) . ثم نراه يظهر استنكاره المرير من أن تنتقل شهوة رجال السياسة إلى رجال الفكر ، فتتولد بينهم العداوة (فيصبح أوكن ضد برجسون ، وهوبتمان ضد مترلنك ، ورولان ضد هوبتمان ، وولز ضد برنارد شو . كما يتغنى كيپلنج ودانونزيو ودورينيه وباريس ومترلنك بأغانى الحرب والقتال ، بينما يطلب الفيلسوف الشيخ فنديت الذى بلغ من العمر الثانية والثمانين ، بصوته المحطم ، من طلبة جامعة ليبزج الاشتراك فى « الحرب المقدسة ») .

وفى هذا المقال أيضاً صرح رولان (أن الباعث الحقيقى على الحرب ، العدو الألد ، ليس خارج حدود الوطن بل هو رابض داخـــل كل أمة . أنه ذلك الأخطبوط الذى يسمى التوسع الاستعمارى ، تلك الإرادة فى الكبرياء والتسيطر التى تريد أن تمتص كل شىء ، فإما الخضوع لها وإما الهدم ، تلك الإرادة التى لا تحتمل مطلقاً أى عظمة ونمو خارج دائرتها) .

وبعد أسبوع من معركة المارن أعلن رومان رولان فكرته العالمية (ووجوب إقامة المدينة الواسعة الممتدة الأطراف التى

تزال منبا المظالم وأحقاد الأمم وتجتمع فيها النفوس المتآخية الحرة في العالم أجمع) .

* * *

لقد رأينا كيف أن رولان في مقالاته كان متجرداً من كل خضوع للوطنية العمياء أو التأثر بتيار الحماسة الذى كان يجرف أمته كما كان يجرف كل الأمم المتحاربة . ولذا لم يتردد — كما رأينا — في السخرية من رجال الفكر والدين ، لأنهم خانوا مبادئهم النبيلة في الوقت الذى كان يمكنهم فيه تأدية أكبر جانب من مهمتهم في الحياة ، كما أنه لم يتردد في إظهار ألمه من تردى العلم في حمأة الأغراض حين يدّعى الأستاذ بيريه مدير المتحف وعضو أكاديمية العلوم في باريس أن البروسيين لا ينتمون إلى الجنس الآرى . كذلك كان من الأسباب التى زادت عدد مهاجميه احتفاظه ، بعد أن أعلنت الحرب ، بصداقة من كان يعرفهم من الكتاب الألمان (إذ ليس حبي لوطني — كما قال — معناه أن أكره أناساً مخلصين يحبون هم كذلك أوطانهم) .

كل هذه الأسباب ، إلى جانب التهم التى وجهت إليه قبل الحرب عن طعنه في العبقرية الفرنسية ، جعلت عدداً من جرائد بلاده ينشر مقتطفات محرفة من مقالاته ليثير عليه الرأى العام . ولقد استطاعت هذه الصحافة المغرضة بلوغ ما أرادت إلى حد كبير

فكان جواب رولان على هذا أن جمع مقالاته فى كتاب مستقل فى سبتمبر عام ١٩١٥ ، حتى يطّلع الشعب الفرنسى بنفسه على حقيقة ما كتب ليعرف مقدار اتهامات أعـــدائه من الحق والضلال . وقد قال فى مقدمة كتابه ما يأتى (إذا باغتت الحرب شعباً عظيما فليس عليه فقط أن يدافع عن حدوده ، بل أمامه عقله أيضاً يجب أن يحميه من الخرافات والخروج عن العدل ومن السخافات ، تلك الأمور التى تطلقها من عقالها المصيبة العظمى . لكل شخص مهمته ، فكما أن على الجيوش أن تحافظ على أرض الوطن ، كذلك على رجال الفكر الدفاع عن الفكر ، فاذا سخروه لخدمة شهوات الآخرين فقد يستطيعون أن يكونوا آلات نافعة ، ولكنهم يخاطرون بخيانة العقل الذى ليس هو أقل جزء من تراث شعبهم) ثم يقول فى النهاية (لقد ظللت عاما بأكمله غنياً بالأعداء ، والآن أقول لهم أنهم يستطيعون أن يحقدوا علىّ ولكنهم لن يستطيعوا أن يعلموني أن أكون حقوداً . . إن مهمتى أن أقول ما أعتقده عدلا وإنسانياً) .

والواقع أن التهم التى أسندت إلى مقالات رومان رولان فى (جريدة جنيف) لا أساس لها من الصدق ، إذ خلقتها من جهة عداوة بعض الأفراد والجرائد من دعاة الحرب والوطنية الزائفة التى تخفى وراءها المصالح الخاصة ومن جهة أخرى الرقابة على المطبوعات

أبان الحرب التى كانت حين تحذف من مقالاته كثيراً من الفقرات التى ترى فيها تطرفا لايجوز نشره ، تترك بذلك المجال لأعدائه لتأويل الجزء الضئيل الباقى تأويلا سيئاً .

وعلى كل حال فقد كان هذا الصراع الهائل بين رجل وأمة داعيا لأن تتسع شهرة رومان رولان بعد الحرب ، وخصوصا وقد حصل عام ١٩١٦ على جائزة نوبل للآداب[1] ، وكانت شهرته خارج فرنسا أوسع منها داخل فرنسا نفسها ، وقد قوبلت كتبه التى ظهرت بعد الحرب بشغف زائد وإقبال عظيم ، فطبعت عشرات الطبعات ، ومن هذه الكتب Aux peuples assassinés (١٩١٧) — Colas Breugnon الذى طبع عام ١٩١٤ ولم ينشر إلا عام ١٩١٩ — Clérambault, histoire d'une conscience libre pendant la guerre (١٩٢٠) — Les précurseurs (١٩٢٤) L'âme anchantée — (١٩٢٥) Le jeu de l'amour et de la mort Les Léonides — (١٩٢٦) Mahatma Ghandi — (١٩٢٦ — ١٩٢٧) Essai sur la mystique de l'Inde vivante — (١٩٢٨) .. (١٩٣٠) إلخ

ولقد ظل رومان رولان يعيش فى سويسرا متخذا إياها وطنا ثانياً له ، محافظاً كل المحافظة على تفكيره وآرائه التى أثارت عليه الحملات غير عابىء بها ، مؤمنا بذلك الإحساس الذى دفعه إلى أن

---

(١) فى عام ١٩١٣ كان قد حصل على جائزة الأدب الفرنسية الكبرى .

يقول أثناء الحرب فى إحـــدى مقالاته (خطاب إلى متهمىّ) Lettre à ceux qui m'accusent (إن الوقت الذى يخصصه للرد على خصم ما إنما يعتبر كسرقة من أولئك التعساء ، أولئك السجناء ، من تلك الأسر التى تسعى ونحن فى جنيف أن نمد لها أيدينا) .

ويرى الناقد (رونيه لالو) أن هذه الصلابة الشديدة التى نجدها عند رومان رولان فى التمسك برأيه والاحتفاظ بنقاء ضميره كرجل مثالى قد آذته إلى حد ما كفنان إذ أفقدت قصصه كثيراً من الليونة والطراءة . على أن هذا الإخلاص لعقيدته بين عواصف الافتراء الكاذب ، وذلك الاحتمال الباسم للاضطهاد الذى بعثته النفوس الصغيرة ، وتلك السعادة فى العذاب التى انعكست عليه من أبطاله بيتهوفن وتولستوى وغاندى ، قد جعلت جميعا منه أحد أعاظم قادة الفكر الأوروبى الحديث .

لقد صبر رومان رولان وتحمل كثيراً من طعنات أعدائه وكأن الزمن قد أراد أن يثبت براءته من محاباة الفكر الألمانى على حساب الفكر الفرنسى وذلك بظهور النازية فى ألمانيا . إذ سرعان ما امتشق رومان رولان الحسام لمقاومتها مر المقاومة ، معلنا عداوته لكل نظام أوتوقراطى يمتهن كرامة الشعوب ، مبينا أن الفكر الألمانى الذى مجده ولا يزال يمجده إنما هو ذلك الفكر الحر المنادى بالمساواة بين الأمم ، الداعى إلى خير البشرية ، وهو نفس الفكر

الذى شردت النازية رجاله من أبناء ألمانيا نفسها بين أرجاء العالم أمثال توماس مان وأنا زيجرس وإرنست تولر وغيرهم ، لأنهم أبوا أن تحكم بلادهم حكما استبداديا لاحرية فيه . ولقد كان جزاء رومان رولان نفسه على عالمية تفكيره ونشاطه المتواصل قبل إعلان الحرب الأخيرة فى محاربة الفاشية وجرائمها ، أن ألقى الهتلريون القبض عليه بمجرد غزوهم لفرنسا ، ثم أرسلوه إلى معسكرات الإعتقال فى ألمانيا حيث زج به فى شيخوخته بين جدرانها المظلمة ، مما عجّل بموته بضعة أسابيع بعد تحرير فرنسا بعد أن سجل اسمه بحروف من نور فى صفوف قادة الفكر الحديث ، المدافعين عن السلام ، المحبين لخير الإنسانية وسعادتها .